المشرق

نبأ عن دار الحرب
بوصف طرابلس الغرب

نظر تاريخي جغرافي بقلم الاب لويس شيخو اليسوعي

انَّ اعلان دولة ايطالية للحرب وهجومها على احدى ولايات الدولة العليَّة على غرَّة وخلافاً لحقوق الامم كانا كانفجار لغم دوى وسط ليلة هادئة في مسامع قوم رقود فقاموا مذعورين او شبه كابوس طبَّق على صدرٍ سقيم فانتفض لهُ هلعاً

والحقّ يقال ان اسم طرابلس الغرب ما كاد يخطر على بال احد في تاريخ السياسة الحاليَّة وانَّما كانت الافكار مصروفة الى انحاء شتى سواها حيث كانت تجري امور اعظم شأناً واحرج خطَّة. والآن لم يبقَ الَّا ان ننتظر ما ستحبل بهِ هذه الحرب من مواليدِ السوء التي وصفها زهير:

فتنتج لكم غلمان اشأم كلُّهم كأحمر عادٍ ثم تُرضع فتفطم

فدرءُ شرورها ينبغي على كلّ ابناء الوطن ان يرفعوا الى ربّ السلام اكفّ الدعاء كي يُزيل قزيباً كل خلاف ويعيد الوئام التامّ بين المتخاصمين امَّا بتوسط الدول الملازمة للحياد. واما بطريقة التحكيم في مجلسٍ لاهاي او بواسطة أُخرى سلميَّة فانَّهُ السميع المجيب

*

على انَّنا في هذا المقام رأينا من الصواب ان نصف للقرَّاء في مقالة موجزة مجمل احوال ولاية طرابلس الغرب فتوقفهم على مختلف امورها ليكونوا على بصيرةٍ من اخبارها وعلى الله المتكل

﴿ حدودها ﴾ قد اختلفت حدود بلاد طرابلس الغرب في اطوار تاريخها. وهي اليوم محدودة شرقاً بالقطر المصري وصحارى ليبية وغرباً ببلاد تونس ويحدُّها من جهة الشمال بحرنا المتوسط ولاسيما خليج السدر وتتاخمها جنوباً اطراف فزّان والصحراء السودانيـة. فيكون موقعها بين الدرجة ٢٣° و١٥ ٣٣° من العرض الشمالي وبين الدرجة ١٠° و٢٢° من الطول الشرقي طولها من الشرق الى الغرب ١٥٠٠ كيلومتر وبين الشمال الى الجنوب ٦٨٠ كيلومتراً وتكسير مساحتها نحو ١٠٢٠٥٠٠٠ كيلو متر مربَّع فتكون نحو ضعف فرنسا كلها. ومع اتّساع ارجائها لا يزيد كثيراً عدد سكّانها عن مليون واحد اعني بمعدَّل ساكن واحد لكل كيلومتر

﴿ اقسامها وهيئتها ﴾ طرابلس الغرب احد الاقطار التي تحدُّ في الشمال قارة افريقية يعدُّونها من البلاد التي كان الرومان استولوا عليهـا فدعوها باسم افريقية الرومانية وهي البلاد الواقعـة بين الاوقيانوس المحيط غرباً ومصر شرقاً اخصُّها موريتانية ونوميدية وليبية. ثم عُرفت في القرون المتوسطة ببلاد بربارية باسم ساكنيها البربر او البرابر (Barbarie, Etats Barbaresques) وكانت تشتمل بعرفهم مرّاكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب

وطرابلس عينهـا تُقسم الى اقطار شتى اخصُّها بلاد برقة ثم طرابلس وفزّان وواحات اخرى كانت قديماً مدن عامرة كقيرينة (Cyrène) وتخومهـا الشهيرة بالخشب والعسران (la Cyrénaïque) وكانت قيرينة داخلة في بلاد المدن الخمس (la Pentapole) وهي قيرينة وابولونياس وبرقة وطوكيرة وهسپريس كانت تكثر فيها الخيرات وتتوفر الارزاق. اما طرابلس ومعناهـا المدن الثلث فكانت مجموع ثلث مدن متحالفة وهي واية (Oea) ولپتيس او لبدة (Leptis Magna) وسبراثا او سبرَتَ (Sabratha) ثمَّ غلب اسم المجموع على الاولى فعُرفت وايةُ ايضاً بطرابلس. واضيفت كلتاهما الى الغرب لفرقهما عن طرابلس الشام

اما الواحات فهي في داخل البلاد اشهرها اوجلة وفزّان وكفرا. وغات

ولواء طرابلس في عهدنا يُقسم الى خمس متصرفيّات : اوّلاً متصرفيّة طرابلس ومركزها مدينة طرابلس البالغ عدد اهلها من ٥٠,٠٠٠ الى ٦٠,٠٠٠ نفس. ثانياً متصرفيّة جبل غربيّة ومركزها غدامس التي يبلغ اهلها خمسة آلاف بنيّف. وهي

وسط الصحراء ثالثاً متصرفيَّة فزَّان وهي جنوبي الولاية مركزها مرزوق واهلها ٦٠٠٠ وفيها ملتقى القوافل القادمة من السودان والراحلة اليها . ومن اشهر مدنها سبحة وزالَّة . رابعاً متصرفيَّة خمس ومركزها سكنة . خامساً متصرفيَّة بني غازي او بنغازي واهلها ٢٠,٠٠٠ ومن مدنها برقة ودرنة

﴿ وصفها ومرافقها ﴾ ان بلاد طرابلس متفاوتة من حيث خصبها وخيراتها ففيها الرياض النضرة والاتلاع المخصبة والاودية الدارَّة النعم وفيها ايضاً الصحاري المقفرة والاراضي القاحلة والسباخ المحجرة او المرملة . ومن اخصب اتلاعها بلاد برقة التي كان يعدُّها اليونان والرومان كجنَّات العالم لاسيما الاتلاع التي كانت تعلو فوقها مدينة قيرينة وتُعرف جهاتها اليوم بالجبل الاخضر لكثرة نباتها ووفرة اشجارها ونضارة حدائقها . وهناك كانت رياض غنَّاء كان يُضرب المثل بمحاسنها ومياهها ورطوبة هوائها يدعونها حدائق المسپريد (Jardins des Hespérides) باسم احدى المدن الخمس التي كانت هناك قريبة منها . واليوم اذا بلغ المسافر تلك الجهات يجد من الراحة ما ينسيه اتعابهُ ومشاقّ سفرهِ في البراري المجدبة . وتهطل الامطار غزيرة في الجبل الاخضر في فصل الشتاء وكان قدماء الرومان لا يضيعون منها شيئاً فيخزنونها في الاحواض لأيام الصيف ليستنبتوا ضروب الغلَّات ويجنوا كثيراً من الاثمار والافاويه والارواح العطريَّة والعقاقير قيل انَّ غلَّاتهم كانت تُعطي من ٢٠٠ الى ٣٠٠ في الواحد وكانوا يصطنعون الارجوان كاعمل صيداء . ومعظم ما يُجنى اليوم الشعير والحنطة وبعض البقول والفواكه ثمَّ التبغ ويكثر عندهم الزيتون

ويلي الجبل الاخضر قسم آخر من كورة برقة يُعرف ببرقة الحمراء لحمرة تربتها ويتبعها برقة البيضاء وكلها سباخ

امَّا المدن الجليلة التي كانت سابقاً في هذه الجهة فقد ذهب اكثرها بتعادي الزمان وكوارث الحدثان بقي منها بعضها القليل . فمن تلك الامصار القديمة بلدة دَرْنة على ساحل البحر كان اليونان يدعونها دَرْنيس واليوم يسكن اخربتها قومٌ من العرب ولها اشجار وبساتين يسقيها نبعان يجريان اليها من الجبال المجاورة . ويكثر فيها العسل وفي بحرها مغاص للاسفنج . وفي شرقيها مرسى طبروك الطبيعي الواسع الاطراف

وقد بقي من قيرينة القاعدة القديمة بعض آثار ابنيتها من قصور ومدافن والعرب يسمونها قرنة وربما اطلقوا عليها اسم عين الشهد باسم عين غزيرة تجري هناك. وكانت قيرينة تبعد عن البحر مسافة ١٦ كيلومترًا وكان مرفأها مدينة ابولونية

اما مدينة برقة وهي التي كان يدعوها القدماء برنيقة (Bérénice) فقد صعبت على الزمان واشتهرت في ايام العرب قال ياقوت في وصفها (١ : ٥٧٣) : « ارض برقة ارض نَاوقيَّة بحيث ثياب اهلها ابدًا محمَّرة لذلك ويحيط بها البرابر من كلّ جانب وفي برقة فواكه كثيرة وخيرات واسعة . . . واهلها يشربون من ماء السماء يجري في اودية ويفيض الى برك بناها لهم الملوك ولها آبار يرتفق بها الناس». وقال ابن حوقل : « برقة بلدة متوسطة هي في ستر من الارض وحواليها كورة عامرة وهي في وسط البوادي » : وقال ابو الفداء في تقويم البلدان (ص ١٤٩) : غالب بلاد برقة مقفرة وبها آثار مدينة عظيمة كانت عامرة في القديم ». وروى عن العزيزي انها « مرجٌ افيح واسع وتربتها حمراء » وانَّ « المتوكل الخليفة بنى عليها سورًا »

وكان لبرقة فرضة مشهورة ابتناها البطالسة ودعوها باسمهم بطلمايس (Ptolémaïs) فاشتهرت بين المدن الخمس ويظهر انها اتسعت كثيرًا حتى ان بقاياها اليوم تتناول دائرتها سبعة كيلومترات واهل تلك البلاد يدعونها طلميثا وقد ذكرها ابو الفداء في تقويم البلدان (ص ١٤٩) وذكر مرساها وقصرًا كان يسكنهُ مانئا يهوديّ تحت خفارة العرب. وهذا المرسى اليوم قد خرب لا يصلح الّا للزوارق والمراكب الشراعية ويسكن في اخربة البلد بعض العربان

وكذلك طوكيرة او طوكر (Teuchera) من المدن الخمس تُرى آثارها حتى اليوم على ساحل البحر غربي مدينة برقة لا يزال سورها قائمًا حولها وفيها مدافن منقورة في الصخر يسكنها العرب وقت الصيف او يضربون خيامهم بين اخربتها

واشهر من المدن السابقة مدينة هسبريدس (Hespérides) اليونانيَّة وهي اليوم مدينة بنغازي حاضرة بلاد برقة قيل انها دُعيت ابن غازي باسم احد اولياء المسلمين الذي يُزار قبرهُ شمالي البلد على شاطئ البحر وكان لبنغازي رأس يطلُّ عليها اخربت قسمًا منهُ الزلازل وامواج البحر فطُمر بهِ المرسى. والمدينة داخلة في البحر الذي يحدق بها جنوبًا وغربًا. وهي بلدة عامرة فيها ابنية كثيرة مستحدثة محكمة

البنيان واهلها نحو ١٥,٠٠٠ العشر منهم اوربيون بين ايطاليين ومالطيين وانكليز. وحول المدينة لرباض مخصبة ومراعٍ تسرح فيها المواشي وفي بحرهـا مغاص ايضاً للاسفنج. لكنَّ مرساها غير امين لا تأوي اليه السفن الكبرى وانما ترسو فيه المراكب القليلة العمق بعد ان أُصلح نوعاً

هذه لخصّ مأثورات بلاد برقة. وان سرتَ منهـا غرباً على ساحل البحر عطف يك المسير جنوباً فاستدار على دائرة كبيرة يتكوَّن منهـا خليج السدر الذي كان القدماء يدعونهُ السرت الكبرى (Grande Syrte) تمييزاً لهُ من خليج آخر اصغر منهُ واقرب الى تونس كان يسمى السرت الصغرى (Petite Syrte) وكان ارباب السفن لا يقتربون منهـا الّا بكل حذر لكثرة صخورهـا ولعلَّ اسم السدر العربي تصحيف السرت اليونانيَّة. وقد يُطلق اليوم لسم سُرت على مدينة صغيرة على ساحل البحر وصفها ابو عبيد البكري في المسالك والممالك (ص ٦) في القرن الحادي عشر للميلاد وسمتها «بمدينة كبيرة» وذكر سورها المبني بالطوب وجامعها وحمّامها واسواقها ونخلها وبساتينها وآبارها العذبة ومواشيها الطيّبة الّا انهُ يذمُّ اهلهـا العبيد واكثرها اليوم خراب

وليس من هناك الى كورة طرابلس الّا رمال او سباخ لا يُرى في وسطها سوى بعض اهـل البادية من العربان وربما قامت في وجه البحر صخور كانت تتحطم عندها المراكب. وفي امكنة كثيرة مستنقعات وخمة تجعل فيها السكنى خطرة والهواء موبئاً الّا انَّ دخول البحر في البلاد يقرّب الطريق الى بلاد السودان وذلك ما يجعل لخليج السدر مستقبلاً حسناً اذ اليه ستنتهي السكك الحديديَّة الى اواسط افريقية الشماليَّة. وفي شرقي طرابلس على ٥٠ ميلاً منهـا مدينة خمس الساحليَّة واهلها نحو ١٢,٠٠٠ نفس

غير انَّ اهمّ تلك الانحاء متصرفيَّة طرابلس التي لدخول سواحلها في الميـاه ومجاورتها لبـلاد تونس وانتصابها بازاء صقلية ومالطة كانت في الاجيال السابقة كاحدى سيدات البحر تجري اليها قوافل افريقية والسودان وتغشيها بمرافقها الجمَّة. وقد اطنب في وصفها جغرافيُّو العرب فاشاروا الى حصانتها وذكروا سورها المبني بالصخر ومرفأها الامين واسواقها الحافلة الجامعة وحمّاماتها الكثيرة ومساجدها

لاسيما الجامع المعروف بالقبة وقوسها الروماني وخصب تربتها وترقي صناعتها

وما يجعل لمدينة طرابلس شأناً عظيماً انها منفذ للبلاد الداخلية اليها تتوارد محصولات السودان على طريقي غدامس ومرزوق. وهي تفضل في ذلك على مرافئ الجزائر وتونس. وللمدينة تحصينات مهمة اخصُّها قلعتها الجديدة ثم عدة قلاع قديمة تُنسب الى الامم التي اقامتها عند احتلالها للمدينة. اما سكانها فقد احصاهم مؤخراً احد المرسلين ٦٠,٠٠٠ منهم ٤٠,٠٠٠ عرب وترك و١٠,٠٠٠ يهودي و٨,٠٠٠ نصراني. خربتْ طرابلس وملحقاتها آثار قديمة عديدة كهياكل وملاعب وقصور يرقى بعضها الى عهد الفينيقيين والرومان ومن آثار كورتها مدينة لبدة (Leptis) احدى المدن الثلث التي بها سُميت طرابلس يُرى منها حتى اليوم رسوم قديمة على بُعد خمسين ميلاً من طرابلس شرقاً بينها اعمدة من رخام عظيمة وابراج ضخمة بعضها على منعطف الجبل المجاور وبعضها قد غمره البحر. قيل انها بلغت بالعمران مبلغ قرطجنة ثم خربها الوندال

اما المدينة الثالثة سَبْرَت (Sabratha) فلا يُعرف غير موقعها

وكورة طرابلس تحتوي الخزون والبطون بينها الاودية المخصبة يكثر فيها النخل والزيتون والاشجار المثمرة وتتوفر الغلات وتمتد المناجع الطيبة وبينها ايضاً الصحارى الغامرة والسباخ القحلة والاراضي الجدبة التي لا تصلح لزرع وعلى بعض مسافة من الساحل سلسلتا جبال تتوازيان كلبنان وجبل الشيخ بينهما بقاع كبقاعنا واسعة الخيرات كثيرة الخصب معدل مسافتها ثلاثون ميلاً. ومن جبالها ايضاً جبل نفوسة في جنوبيها الغربي. ولاهلها عناية خاصة بتربية النحل ومشارة العسل. ومن مدن طرابلس غدامس على طريق بلاد السودان فيها الجلود المفضلة ولها عين غزيرة الماء طيبة بقربها آثار قصر رومي جليل وكانت قوافل البلاد الداخلية تتزاحم فيها الا انها منذ امتلاك الاوربيين لبلاد الكنغو صارت تفضل طريقها الامينة

اما المتصرفيات الداخلية فواحات عامرة في وسط السباخ والصحارى منها جنوبي برقة واحات أوجلة وكفراء حيث النخل والاشجار والفواكه. وقد استولى على تلك البلاد السنوسيُّون منذ نحو خمسين سنة. ثم واحات فزّان وقاعدتها زويلة اشتهرت باسواق الرقيق قال عنها ابن سعيد انها « جزائر نخل ومياه في صحارى »

وكذلك في فزّان من الامكنة العامرة زالّة مدينة صغيرة عامرة كان لها حصن منيع. ووادٍ فيها مزارع ذرة وتوت ونخيل ومواشي. وسَنترية الشهيرة برمّانها وهي وبئة. ومنها واح غات حيث مدينة حديثة يسكنها البربر ومدينة بركة اهلهـا طوارق (Touaregs)

﴿ تاريخها ﴾ يظهر ان اوّل من سكن طرابلس الغرب الفينيقيون استعمروها كما استعمروا سواحل تونس حيث بنوا قرطاجنة. الّا ان بلاد برقة كانت واقعة تحت نفوذ المصريين وماوكهم الفراعنة. ثم مصّرها اليونان في عهد البطالسة ونشروا فيها عمران بلادهم وبلّغوها ذروة الحضارة. ولمّا فتح الرومان قرطجنة سنة ١٤٦ قبل المسيح ودمّروا ابنيتها استولوا على كل بلادها وجعلوها اقليماً من اقاليمهم فدعوها افريقية الرومانية وكانت طرابلس داخلة في حكمها الّا بلاد برقة التي لم تلحق بها الّا بعد زمان

وخلف الرومانَ ملوكُ الروم في القسطنطينية فوكلوا تدبير اقليم افريقيـة الى عمالهم الى ان غلبهم عليه ملوك الوندالة في القرن الخامس فنهبوهُ وبقي في حوزتهم مدّةً ثم عاد الروم فملكوهُ الى عهد العرب الذين ساروا اليـهِ بعد فتح مصر ولم يزالوا يحملون على برقة وطرابلس الحملة بعد الحملة حتى استولى عليهما سنة ٢٩ للهجرة (٦٥١ م) عمرو بن العاص ثم اتمّ الفتح عقبة بن نافع لكن البربر اغتالوهُ وقتلوهُ مع قوم من العرب ولم تنتظم الامور الّا في ايّام بني اميّـة لما تولّى على افريقية موسى بن النصير سنة ٧٧ هـ (٦٩٧ م) ففرّق شمل البربر وقتل قائدهم كسيلة

وتتابعت الولاة على طرابلس وملحقاتها من قبل بني امية ثم من قبل بني العبّاس من بعدهم حتى تولّى ابراهيم بن الاغلب سنة ١٨٤ هـ (٨١٠ م) واستقلّ ابناؤهُ من بعدهِ الى عهد ثامنهم ابي مضر زيادة الله فانتقض جبل الاغالبة وضعفوا فارسل خلفاء الدولة الفاطمية جيوشهم فضبطوا بلاد طرابلس سنة ٢٩٦ (٩٠٩ م) ثم غلبهم عليها بعض عمّالهم وصارت الى بني زيري سنـة ٣٦٢ (٩٧٢ م) لكنّ الفاطميين استرجعوها سنة ٤٤٦ (١٠٤٤ م)

وفي سنة ٥٤٣ (١١٤٩ م) فتحها ملك صقلية روجار من ملوك النرمنديين مع

سواحلها الى قرب تونس ولم تطل مدة ملكهم على انحائها فبسط سنة ٥٥٣ (١١٥٨ م) عليها الموحدون ايديهم. ثم صارت من بعدهم الى اصحاب تونس من عمال الموحدين وهم المعروفون ببني حفص فملكوها من السنة ٦٢٥ (١٢٢٨ م) الى ٩١٥ (١٥١٠ م) فاستولى عليها فرديناند ملك اسبانية وابنهُ كارلوس الخامس ثم تنازل هذا عنها لفرسان رودس سنة ١٥٣٠ لكنَّ طرغود باشا انتزعها من يدهم سنة ٩٥٥ (١٥٥١م) وجعلها حصناً حصيناً يأوي اليهِ قرصان البحر فينقضُّون كالبُزاة على سفن الاوروبيين. ثم ملكها الفرنسويون مدة سنة ١٠٩٤ (١٦٨٥ م) وانما استرجعتها الدولة العليَّة وحفظتها تحت حكمها الى اواسط القرن الثامن عشر حيث استقلَّ بها احمد بك احد الامراء القرمانيين تحت سيطرة الدولة العثمانية. وفي سنة ١٨٣٥ عادت للدولة السيادة التامَّة عليها فجعلت طرابلس كاحدى ولاياتها

فترى كم تقلَّب على طرابلس من الاحكام وقد ابقت كل دولة فيها شيئاً من آثارها لاسيما مدينة طرابلس حيث عدَّة قلاع تُنسب كل منها الى الدولة التي ابتنتها

﴿ اهلها ﴾ ان اهل طرابلس الغرب الوطنيين هم البربر او البرابر والبربر قبائل متعدِّدة يُفضلون السكنى في الجبال ففي الجهات الشرقيَّة قبائل لواتة وهم من نسل قدماء الليبيين. وفي اواسط البلاد قبائل زناتة اما النواحي الغربيَّة فتسكنها قبائل صنهاجة ونفوسة. ومن نفوسة كان طارق فاتح الاندلس. ومن قبائل البربر الكبيرة الطوارق وهوارة وبنو مزاب وهم قوم ذوو بأس ونخوة واباء. وللبربر لغةٌ خاصَّة يلحقونها باللغات الهندوجرمانية وقد امتزج فيها الفاظ عربيَّة كثيرة

واكثر سكَّان بلاد طرابلس بعد البربر العرب قيل انَّ بعضهم سبقوا الهجرة فاتوا افريقية في ايَّام ملوك حمير فنزلوا البلاد وسكنوها والبعض الآخر قدم مع عمرو بن العاص او قصدها من بعده بتوالي الاعصار. والعرب يأنسون الى البراري وينتجعون المراعي الطيبة لمواشيهم وقد افسدوا غابات كثيرة واحرقوها لتصلح لقطعانهم. ومن قبائلهم الشهيرة اولاد سليمان وبنو ارفلَّة وهم اصحاب غارات وحروب ثم اولاد ابي يوسف قوم كرام ذوو اخلاق رضيَّة. وكثيراً ما اختلط البربر والعرب بالزواج حتى صار يصعب الفرق بين الفريقين صورةً ونسباً

ومع البربر والعرب يكثر في طرابلس الغرب جيل الزنوج كان النخَّاسون يأتون

بهم من البلاد الداخليَّة فيبيعونهم كعبيد ثم كثروا حتى اتخذوا لهم ضياعاً وقرى بيوتها من القصب وسعف النخل ومنهم من يأوي في الجبال الى كهوف واسعة احتفروها وسكنوها مع اهلهم ومتاعهم . والزنوج على هيئات شتى ومن قبائل متعدّدة . ولغتهم تُعرف باللغة السودانيَّة

والترك في طرابلس الغرب ليسوا بالعدد الوافر وانما يضبطون زمام الامر فمنهم الولاة والعمّال والشُرَط . وهم في التمدُّن ارقى من سواهم من اهل طرابلس

وفي انحاء طرابلس ايضاً نحو ٢٠,٠٠٠ من اليهود وأكثرهم في المدن ومنهم من يسكن في المغاور كالزنوج خصوصاً في جبل غوريان . ولهم حاخام وُكلت اليه ادارتهم وتنظيم امورهم والمسئوليَّة عنهم لدى الحكومة

وهناك ايضاً قوم من الاجانب لاسيما الايطاليين والمالطيين والاسبانيين مع قليل من الاقباط . وكان هؤلاء الاجانب قد كثروا في هذه المدَّة الاخيرة

﴿ تجارتها ﴾ انَّ موقع بلاد طرابلس الغرب يجعلها من افضل البلاد للمتاجرة اذ هي فرضة افريقية السودانيَّة والوسطى بين قبائل الجهات الداخليَّة وبلاد العرب ولذلك ترى السيَّاح والجغرافيين منذ قديم العهد يقفون في بيان معاملات مدنها الساحليَّة مع الاصقاع البعيدة عن البحر غير انَّ صروف الدهر والتقلبات التي طرأت على تلك الاصقاع وتوالي الامم في ملكها كلُّ ذلك قد خفَّف تلك الحركة التجاريَّة وحصرها في مراكز قليلة اخصُّها اليوم بنغازي وطرابلس وطبروك وهي في نفس هذه المدن ضيِّقة النطاق اذ ليس لها مرفأ يمكن السفن الكبرى من الرسو عندها

وكانت صادرات طرابلس قديماً الانسجة القطنيَّة والصوفيَّة والحريريَّة وكان فيها معامل شهيرة للاقمشة وللطنافس وللسختيان واستحضار الجلود وتُساق اليها المواشي والقطعان واليها كانت تتوارد جواهر البلاد الداخلية وحجارتها الكريمة والعاج وريش النعام والصمغ والزعفران . وكثير من هذه الصادرات قد بطل اليوم واخصُّ محصولات طرابلس في زماننا الحلفاء يبيعون منها بنحو ٤,٠٠٠,٠٠٠ فرنك ثم الملح المعدني والصناعي والكبريت والعاج وريش النعام والمواشي . وممَّا بطل ايضاً مع ترقي التمدُّن وبفضل اتفاق الدول لسواق الرقيق التي كانت تُقام في طرابلس فيباع العبيد بيع السلع والحيوان

اما الواردات فمعظمها المنسوجات الاوربيّة والمعادن النافعة كالحديد والنحاس ثم الحرفيّات والافاويه والبزور والشمع والتبغ وقد قدّر بعض الاقتصاديين قيمة صادرات ايالة طرابلس بنحو ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك وارداتها بنحو ٢٢,٠٠٠,٠٠٠ - يدخلها في السنة نحو ٧٠٠ سفينة محمولها قريب من ٣٠٠,٠٠٠ طنّ

﴿ الاديان ﴾ الدين الشائع في طرابلس الغرب انّما هو الاسلام مع سننهِ وفرائضهِ . وانّما الاهلون حنفيّون بينما الاتراك يجرون على مذهب الامام مالك . وقد شاعت في جهات المغرب والجزائر وتونس وطرابلس طوائف نصفها ديني ونصفها الآخر سياسيّ تنتمي الى بعض مشاهير الرجال الذين تتلمذ لهم الناس فجروا على طرائقهم في العبادات والفرائض والمناسك منهم الصوفيّون والدراويش والاخوان ينضمّ الطالبون الى جماعتهم بعد امتحان معلوم ويعيشون في الزوايا او مع جمهور الناس مرتبطين بروابط الطاعة لرئيس الطريقة اشتهر منهم في سواحل المغرب القدريّة والشاذليّة والطيبة والتيجانيّة والرحمانيّة

ومن افاض الكتبة في اخبارهم في اواسط القرن السابق السنوسيّة الذين كثر فيهم القال والقيل في هذه المدة الاخيرة وخلاصة تاريخهم انّ الشيخ محمّد ابن السيد علي السنوسي الخطابي المجاهريّ المولود سنة ١٢٠٦ هـ (١٧٩١ — ١٧٩٢ م) في مستغنم من اعمال الجزائر من اسرة تترقّى الى الحسن بن علي كان انقطع في شبابهِ الى درس القرآن والفقه في وطنهِ ثم رحل في السنة الثلاثين من عمرهِ الى فاس فأخذ عن علمائها وبعد سبع سنين رحل الى مكّة وزار في طريقهِ ائمة زمانهِ ودرس الطرائق الشائعة من قبلهِ في جهات المغرب ثمّ في مصر والحجاز . ولقي في مكّة السيد احمد ابن ادريس الفاسي فتتلمذ لهُ واخذ عنهُ طريقتهُ الخادريّة حتى برع فيها . فلمّا توفي استاذهُ لم يتفق تلامذتهُ في اختيار خلفهِ فانقسم الخادريون قسمين قسم تبع السيد الهندي محمّد صلاح المرغنيّ وقسم انضم الى الشيخ محمّد السنوسيّ الجزائري واتّخذ كلاهما في مكّة زاوية لاصحابهِ . فابتنى الشيخ السنوسي زاويتهُ على جبل مجاور لمكّة يُدعى ابا قبيس كان يعلّم فيها فتوارد اليهِ الطلّاب لشهرتهِ لاسيما من اهل المغرب وجهات افريقية فبقي هناك يعلّم ثماني سنوات (١٨٣٥ الى ١٨٤٣) الّا انّ الحساد لم يزالوا يسعون بهِ واتهمتهُ الدولة العليّة بمناصرة شريف مكّة عبد المطلب عليها

فاضطرّ الى الخروج من مكة وتبعهُ تلامذتهُ ورحل الى طرابلس الغرب فسكن مدَّة في بنغازي ثم انتقل الى الجبل الاخضر في نواحي برقة سنة ١٢٥٥ وكان يفرض على طلَّابهِ ان يبتنوا الزوايا حيثما حلُّوا فكثرت هذه الرابط في جهات برقة واوجأة وواحات كفراء حتى بلغ عددها ٢٢ زاوية في آخر حياتهِ وكثر عدد تبعتهِ حتى بلغوا مئات الوف وكان لهُ فيهم نفوذ عظيم يقضي عليهم بشظف العيش والاصوام الطويلة والفرائض الشاقة فزادت بذلك سلطتهُ على اتباعهِ حتى خافت الحكومة التركيَّة من حركة يتولَّاها السنوسيُّون فتوغَّل الشيخ السنوسي في داخل البلاد واتَّخذ لهُ مركزًا في مدينة جغبوب قريباً من تخوم مصر وكان يبتاع العبيد فيعلّمهم طريقتهُ ويرسلهم الى السودان لينشروا هناك تعاليمهُ. ولمَّا مات الشيخ السنوسي سنة ١٨٥٩ خلفهُ ابنهُ السيد محمَّد المهدي وساعدهُ اخوهُ في نشر الطريقة السنوسيَّة حتى اتبعها عليه ملك ودَّاي واهل مملكتهِ وكان يؤدون الخراج للسيد محمَّد حتى صار اشبه بملك والسنوسيُّون اشبه بأمَّة مستقلة تخافها الدول المجاورة لها وقد توفي محمد المهدي سنة ١٩٠٢ وخلفهُ شقيقهُ محمَّد شريف الى اليوم

امَّا الزنوج في طرابلس الغرب فيجرون على عاداتهم الدينيَّة من اكرام الارواح وتعظيم القوَّات الطبيعة. وكثيرون منهم اسلموا

وقد سبق ذكر اليهود. امَّا النصرانيَّة فكانت قبل الاسلام ديانة تلك البلاد دخلت اليها منذ القرون الاولى للمسيح وكان لجهات برقة اساقفة يتبعون بطريرك الاسكندريَّة لكنَّ انحاء طرابلس كانت خاضعة لرئيس اساقفة قرطجنة

ولمَّا انتشر الاسلام انقطعت في جهات طرابلس سلسلة الاساقفة حتى دثرت بعد مدَّة آثار النصرانيَّة . وفي القرن الثالث عشر اجر الرهبان الفرنسيسيُّون الى طرابلس مع الرهبان الثلاثين فخدموا الاسرى الذين كان يستعبدهم قرصان البحر ففدوا منهم كثيرين وخدموا الباقين بكل غيرة حتى انهم كانوا يسكنون معهم في اللومان لا يفارقونهم ليلًا ولا نهارًا . ودامت هذه الحالة الحرجة الى ان ابرمت الدولة الفرنسويَّة العهود مع تركيَّا فتساهلت الدولة العليَّة وسمحت للآباء الفرنسيسيين ان يسكنوا في مدينة طرابلس الغرب فقدموا اليها سنة ١٦٣٠ وكانوا اوَّلًا من الايطاليين. وفي سنة ١٦٤٣ رُقيت الرسالة الى نيابة رسوليَّة وكان اوَّل نائب

فرنسويًّا اسمهُ الاب پسكال كانتو (Pascal Cantôt) يساعدهُ ثمانية من ابناء رهبانيَّته فكانوا يهتمُّون بالتجار القادمين للمتاجرة الى طرابلس وباسرى الحرب الذين لم يقلّ عددهم عن الف نفر وقد قاسى الرهبان مشقات كثيرة في عملهم ومات بعضهم شهداء ايمانهم اوَّلهم وهو الاب بطرس دي پنتي الايطالي مات حرقًا سنة ١٦٥٤ ولم يُسمح لهم ان يبنوا معبدًا الى اواخر عهد الملك لويس الرابع عشر

وقد تحسَّنت الامور في القرن التاسع عشر وصارت الرسالة في ايدي الرهبان الايطاليين والنائب الرسولي الحالي هو الاب غتراغا روسّتي (G. Rossetti) تعيَّن لهذه الوظيفة منذ ٢٣ سنة. وعدد الكاثوليك في مدينة طرابلس ٤,٤٠٠ لهم مدرسة ثانويَّة عامرة يديرها الاخوة المريُّون وطلبتها ٢٩٥. وللبنات مدرسة أخرى تحت ادارة راهبات مار يوسف عدد فتياتها ٣٥٠. وفي طرابلس ٣,٠٠٠ نفس من الروم اليونان

وللكاثوليك ايضاً مراكز اخرى لخدمة التجار منها مركز للرهبان في دُرْنة ولهم في بنغازي مدرستان للذكور والاناث. ولهم اربعة مراكز غيرها للرعايا وقد بنى المرسلون حديثاً مستشفًى كبيرًا يُقبل فيهِ المرضى من كل الاديان وفتحوا ستَّة مستوصفات تُعطى فيها الادوية مجَّاناً. ولهم ميتم كبير. وعدد المرسلين ٢٥ راهباً يضاف اليهم ٤٦ اخاً من المريين والرهبان المدرسين و١٧ راهبة

فكفى بهذا شاهدًا صادقًا على نجاح الكثلكة ورقي اعمالها الخيريَّة في طرابلس الغرب. فالله نسأل ان يأخذ بيد كلّ عملة الخير وينبي في افريقية اسباب العمران ويصون فيها حقوق الدولة العليَّة من كل طامع ينوي اغتصابها